ثانية ماستر	مقياس: النظريات الدلالية	التطبيق 02	الأستاذ: محمد فارح

الجهود الدلالية عند الجاحظ:

أصل اللغة عند الجاحظ:

إن الجاحظ يرى بأن اللغة توقيفية ويحتج لمذهبه بأدلة وحجج أهمها:

- كلام عيسى . عليه السلام . بالحكمة وهو صبي.

- كما أن آدم وحواء كانا محتاجين للغة، للتفاهم والتحاور والتشاور فأخذ الله بأيديهم وألهمهم لغة، وحياً من عنده.

-إن القرآن الكريم قد أتى بألفاظ لم يعرفها العرب في جاهليتهم وذكر الجاحظ بعضاً منها كتسمية كتاب الله قرآن، والتيمم مسح على التراب، والقذف فسق، إن ذلك كله لم يكن في لغة أهل الجاهلية.

الدلالة والصوت:

حاول الجاحظ أن يضع قواعد تتعلق بالصوت، ومن ذلك قوله: "واقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير"، إن الجاحظ ها هنا يحاول أن يضبط مسألة تتعلق بالصوت ومجاورته للصوت في تشكيل الكلمة، فلا تقترن بالحروف التي لها تحمل السمة الصوتية نفسها، فالجيم لا يقترن بالظاء ولا القاف ونحو ذلك، والعلة عنده أنها أصوات مجهورة، وهذا حتى تتشكل الكلمة من أصوات متباعدة الأصوات لتكون سلسلة في النطق تستسيغها الأذن.

ويقول: "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"، فالكلام عنده لا يتصف بالبلاغة إلا إذا يتفق

اللفظ ومعناه وتناسقا معا ليصلا إلى أذن السامع فيستسيغهما معا، فلا يسبق أحدهما إلى المتلقي فيفسد عليه الذوق وينفر من الكلام.

ولهذا نجده يتحدث عن ذلك في السياق ذاته؛ فيقول: "وإنما الألفاظ على أقدار المعاني فكثيرها لكثيرها وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها، والمعاني المصغرة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل ما تحتاج إليه المعاني المشتركة والجهات الملتبسةّ"

أصناف الدلالة:

سَّم الجاحظ الدلالة إلى خمسة أقسام، فقال: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها: اللفظ، ثم الإشارة، ثم الَعْقد، ثم الخط، ثم الحال، وتسمى نُصْبَة"، فالعلامات عنده لغوية وتتمثل في اللفظ، وغير لغوية وتتمثل في الإشارة، والعقد، والخط، والحال (النصبة).

واللفظ عنده يكشف عن أعيان المعاني في الجملة، ويخص اللفظ الذي هو أعلى مراتب التواصل وأسماها.

أما الإشارة فتكون باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان.

والعقد ويقصد به الحساب وهو دون اللفظ والخط، فالدليل على فضيلته وعظم قدر الانتفاع به، قول الله عز وجل: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: 96]

والخط: فما ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه من فضيلة الخط والإنعام بمنافع الكتاب قوله لنبيه: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق: 4] وأقسم به في كتابه المنزل على نبيه المرسل حيث قال: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: 1] ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين.

والحال: هي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدلالة التي

في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان.

وظائف الكلام عند الجاحظ:

ذهب جاكبسون إلى أن "الوظائف التي يؤديها الخطاب اللغوي انطلاقاً من فحوى مضمونه الذي يحدد قصد المتكلم، وغايته من إعلام السامع، الذي بدوره يتخذ أشكالاً عدة من ردود الفعل تجاه الخطاب اللغوي الذي استفزَّه وأثاره، هذه الوظائف هي: الوظيفة المرجعية، والوظيفة الانفعالية، أو التعبيرية، والوظيفة الإفهامية، ووظيفة الانتباهية، والوظيفة الشعرية، والوظيفة ما بعد الألسنية"، هذه الوظائف الست التي ذكرها جاكبسون لا تبتعد كثيرا عما تحدث عنه الجاحظ في كتابه البيان والتبين ومن ذلك قوله: لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه المعاون له على أموره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها"، وهذا يتفق كثيرا مع الوظائف التعبيرية والإفهامية، والانتباهية في وظائف التواصل لدى جاكبسون؛ كون مقاصد الناس لا تظهر علنا إلا من خلال تحويلها إلى مقولات يحاول أن يوصل بها مكنوناته إلى المستمع، ولهذا فإن المتكلم كما يقول الجاحظ يعيد إحياء تلك المعاني من جديد عبر استعمال اللغة، وهذا ما تعنيه الوظيفة التعبيرية، أما الإفهامية فإنها تتمظهر من خلال التأثير في المتلقي، ويتجلى من خلال الأساليب اللغوية كالأمر والنداء والاستفهام، ونحو ذلك. أما الانتباهية فتكون من خلال الاتصال في حد ذاته في قول الجاحظ واستعمالهم إياها، فالاستعمال لتلك المعاني يكون عبر قوالب لغوية تنتقل بين مرسل ومرسل إليه.

الدلالة السياقية:

تحدث الجاحظ كذلك على الدلالة السياقية وهذا في قوله: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، وأقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"، ويفهم من هذا أن المتكلم

عليه أن يكون عالما بمقامات الناس وأحوال المستمعين، وأن يقسم المعاني على أقدار الحالات، ثم يجعل كل إنسان في مقام معين، ومن بعد ذلك يتوجه بالكلام للطبقة التي يتناسب معها، وهذه نظرة موضوعية وعلمية، لأن من شروط التخاطب أن يتوجه المخاطِب بالكلام إلى من يفهمه أو من هو مهيئ للفهم، حتى لا ينغلق المسار الخطابي بسبب الفشل في إبلاغ المعنى والمقصد.